امير البيان : شكيب ارسلان

تأليف احمد الشرباصي

٩١٢ ص من القطع الكبير ـ دار الكتاب العربي . مصر

* * *

تتسم هذه المرحلة في حياة ادبنا العربي المعاصر بطابع الكشف عن القديم الذي غطاه التراب وتصحيح الحقائق المطمورة واحياء ذكرى الاعلام الذين كانوا عمالقة وقاموا بجهد ضخم في خدمة الفكر والوطن والسياسة والاجتماع .

وفي هذا المجال ظهرت دراسات ضخمة بذل فيها مجهود كبير عن اعلام ظل اسمهم يتردد طويلا ويحمل وراءه تاريخا طويلا مشتتا حتى جاء مثل الاستاذ احمد الشرباصي ليشغل نفسه سبع سنوات كاملة بالبحث عن امير البيان شكيب ارسلان وآثاره وتاريخه ويكتب عنه حتى الان ثلاثة مؤلفات :

- شكيب ارسلان من رواد القومية العربية .
- شكيب ارسلان داعية الاسلام والعروبة .
- امير البيان شكيب ارسلان ، وهي الرسالة التي نحن بصددها الان والتي بلغت ٩١٢ صفحة من القطع الكبير وصدرت في جزءين .

وكانت موضع دراسة الماجستر في معهد الدراسات العربية ، ومن ثم تكشفت حياة هذا المجاهد الكاتب النابغة الذي خدم بلاده اكثر من خمسين عاما قضى اغلبها مغتربا بين تركيا واوروبا لا يكل من العمل ولا يهمد .

ولقد حمدنا للاستاذ احمد الشرباصي هذا الجهد الضخم الذي بذله في الاستقصاء ، والحق ان شكيب ارسلان كما وضعه الكاتب « شخصية متعبة لمطالعه وباحثه والكاتب عنه » فقد طال عمره وكثر عمله وظل يكتب اكثر من ستين عاما وكان كالغيث الهاطل المدرار في كتابته حتى تصعب ملاحقته ومطالعته . فقد الف ونشر عشرات من الاثار والمؤلفات وكتب الالاف من المقالات والبيانات والرسائل بين مطابع وصحف مصر ولبنان وسورية وامريكا وسويسرا .

وقدر بعض الناس ما كتب من الكتب والمقالات بـ ٣٥ الف صفحة من الحجم الكبير ، وذلك عدا رسائله الخاصة التي هي اشبه بمقالات الصحف فانه ظل عشرين سنة يكتب في كل سنة ما يتراوح بين ١٥٠٠ والغي مكتوب فالمقالات التي يحررها في السنة من ٢٠٠ الى ٢٥٠ مقالة بالعربية والفرنسية .

وقد اشار شكيب الى ذلك في عام ١٩٣٧ فقال : حالتي الراهنة الان من جهة الكتابة هي ان اكتب في الحول ١٧٠٠ الى ١٨٠٠ مكتوب خصوصي ونحوا من ٢٥٠ مقالة في الصحف عدا التآليف المطبوعة التي تبلغ بالاقل ألفين الى ٢٥٠٠ صفحة في السنة .

وكان لا بد للشرباصي ان يبحث عن كل هذا حتى يستوفي عمله في دراسة الرجل على مدار السنوات الطويلة في عشرات الصحف والمجلات والوف الرسائل الى اصدقائه ورصفائه .

وكان عليه ان يلجأ الى اصدقائه في مصر ولبنان وسورية وان يقابل السيدة زوجته واولاده في القاهرة وبيروت .

ومن اجل ذلك وصل الى الشويفات وقابل شقيقه الامير حسن وحادثه طويلا . ووقف على قبر شكيب .

ووجد في الشويفات خمسة وعشرين صندوقا لم تفتح ، فيها اوراق وكتابات لشكيب . وقد حاول الاطلاع عليها لدى الامير حسن فلم يجد الى ذلك سبيلا .

وسافر الى القدس من اجل البحث عن مذكراته التي كتبها واودعها المؤتمر الاسلامي وبحث طويلا . واتصل بعديد من معارفه واصدقائه .

كما اتصل بآل رشيد رضا في القاهرة ـ وحصل على قدر ضخم من آثاره ورسائله التي تعد من انفس الآثار الادبية ذات الدلالة على جوانب كثيرة من تاريخنا الادبي والقومي والسياسي المعاصر .

وقد استطاع ان يحرز اكثر من مائة وثلاثين رسالة من هذه الرسائل بمعاونة الإستاذ المعتصم رضا ادخل فيها على البحث (٧٥ رسالة) لانها تتصل بموضوعه .

ويقول الشرباصي انه بالرغم من هذه الصفحات التي بلغت الالف وخمسمائة في كتبه الثلاثة فانه ما زال لم ينشر جوانب متعددة عن حياة شكيب .

وفي بحوث الشرباصي عن نثر شكيب وشعره واثره في اللغة تفاصيل ضخمة واستفاضة لا حد لها تكاد لا تؤرخ لشكيب وحده وانما تمثل قطاعا كاملا من الادب العربي المعاصر في هذه الفترة يشمل البارودي وشوقي ورشيد رضا .

ولم يكن شكيب اديبا او شاعرا فحسب ، بل كان ناقدا ولغويا ، وكان قطبا من اقطاب السياسة والوطنية والوحدة الاسلامية والقومية العربية خلال حياة طويلة ظل يكتب فيها اكثر من ستين عاما (١٨٨٨ ـ ١٩٤٨) والف عشرات الكتب واحيا عشرات اخرى وشغل بالقضايا العربية والاسلامية وكان بيته موئلا لاقطاب العرب والمسلمين .

وكما عمل شكيب في ميدان تطويع اللغة وتعريبها بذل جهدا في ميدان الترجمة واحياء تاريخ العرب وتاريخ الاسلام وتحقيق المخطوطات. وله اراء قيمة في السياسة واسباب تأخر الامم وحيل الاستعمار والاحتلال .

وكانت تعليقاته على (حاضر العالم الاسلامي) تمهد لدائرة معارف اسلامية كاملة . وكان كتابه (لماذا تأخر المسلمون) بعيد الاثر في الكشف عن اوجه الضعف ووسائل القوة .

وكان للاندلس في حياته وادبه وقلمه نصيب كبير ، فهو المعني بها يترجم عنها من مؤلفات الغرب ثم يسيح اليها ويعنى بان يقرأ كل شيء عنها .

كل هذا جلاه الشرباصي في قوة ووضوح كما درس عصره باستفاضة وتحدث عن تاريخ حياته ورحلاته وهجرته وصحح مختلف ما

ورد في الكتب من اخطاء حول تاريخه وارائه .

ولا غرو فاحمد الشرباصي كاتب لامع له في مجال النهضة الفكرية الحديثة مجال كبير واثار متعدده وهو يكتب منذ مطالع شبابه وقد برز بعد الحرب العالمية الاولى مع صفوه من شباب المدرسة الوسطى والبناء على الاساس ، اولئك الذين امنوا بضرورة أن يقوم الفكر العربي على اساس من الايمان بشخصيتنا وامجادنا وتراثنا دون ان ننفصل عن مقوماتنا الاساسية ولا بأس من تلقى خير ما في الحضارات والثقافات بحيث لا تنمحي معالمنا الاصيلة ولا ننحرف عن رسالتنا الانسانية الاخلاقية الروحية ذات القيم الواضحة والمثل الصريحة ولعله قد كشف عن ذلك بوضوح في كتابه (واجب الشباب العربي) الذي اصدره عام ١٩٤٨ وأبان فيه عن الصلة بين العروبة والاسلام وله في هذا المجال كتابه « وسائل تقدم المسلمين » .

وقد كان الشرباصي منذ بروزه الى المجال الادبي والفكري شعلة نشاط فقد شارك في عشرات من المؤتمرات خارج مصر فزار فلسطين والباكستان والكويت وعمل في عشرات من اللجان الثقافية والجماعات وكتب في صحف الازهر والشبان ولواء الاسلام والمجتمع العربي والقى عشرات من المحاضرات في مختلف اوجه النشاط الفكري.

وله عدد كبير من المؤلفات تناول الكثير من اعلام الاسلام كعمر بن عبد العزيز وابو عبيدة والسيدة زينب وابو بكر الصديق كما تحدث عن الصوفية وناقش دراساتها في عدد من مؤلفاته وكان ابرز اعماله كتابه (في عالم المكفوفية) الذي كان الاول من نوعه في الدراسات العربية حيث تناول المكفوف واخلاقه وذكاءه ومواقف المكفوفية التاريخية وجمع ما كتب عنهم من شعر ونثر ، وامثال المكفوفين ، كما اورد معجما لغويا لهم ، وترجم لعدد من المكفوفين الذين تحدوا كف البصر (١٥ علما) واورد مجموعة من القصص عنهم . ولقى كتابه بجزءيه اهتماما واضحا .

كما كتب عن رحلاته : عائد من الباكستان ، وايام الكويت وكانت عنايته الواضحة بالمسرح الاسلامي فقد وضع اكثر من ثلاث عشرة مسرحية تمثل حلقات من تاريخ العرب والاسلام عن ابي فراس الحمداني وسلمة ابن دينار وعمر بن عبد العزيز واشعب وسعد بن ابي وقاص ومسرحيات اخرى عن مولد الرسول ومروءة الابطال .

* * *

سألته عن اول ما كتب فذكر لي انه مقال في نقد كتاب محمد لتوثيق الحكيم نشره في مجلة الازهر ١٩٤٢ .

وقد استطاع في خلال هذه الفترة التي لا تزيد عن عشرين عاما ان يحقق نجاحا ضخما في ميدان الفكر والادب كان ابرزه هذا العمل الكبير الذي ازاح به النقاب عن حياة عملاء مثل الامير شكيب ارسلان ، وكشف به عن جوانب ضخمة في حياتنا الادبية والسياسية والاجتماعية المعاصرة .

ولسنا نكتفي من الاستاذ الشرباصي بما نشر عن شكيب ارسلان في نطاق الابحاث العلمية ولكنا نطالبه بان يكمل الجوانب الباقية من حياة (شكيب ارسلان) وبذلك يقدم للامة العربية وللباحثين عملا نافعا سيكون مرجعا هاما في كل ما يتصل بالقضايا العربية والاسلامية وتاريخ العرب في العصر الحديث .

رسائل شكيب ارسلان

وليس هناك عمل اجل خطرا من كشف النقاب عن رسائل شكيب ارسلان التي قدم الاستاذ الشرباصي منها (٥٥ رسالة) من (١٣٠ رسالة) مخطوطة حصل عليها موجهة من شكيب الى رشيد رضا في الفترة من عام ١٩٣٥ وقد شغلت هذه الرسائل (٢٢٣ صفحة) من الرسالة .

ونحن نعلم ان شكيب ارسل مئات الرسائل الى عدد كبير من اعلام العالم العربي ومنهم الان السيد محب الدين الخطيب الذي اراني ملفا ضخما به اكثر من مائتي رسالة من الامير شكيب اليه ولا شك ان الحصول على هذه الرسائل واذاعتها يؤدي خدمة ضخمة للفكر العربي المعاصر والتاريخ العربي الذي يكتب الان من جديد بعد ان تحررت الاوطان من القيود التي كانت تفرض عليها اخفاء بعض جوانبه .

وليس الامير شكيب اديبا فحسب ، بل هو زعيم من زعماء العرب ولا شك تعطي رسائله حقائق بعيدة المدى تلقي الضوء على كثير من الاحداث وتضع النقط على كثير من الحروف .

وبالرغم من ان الشرباصي لم ينشر في كتابه الا الرسائل ذات الصلة ببحثه عن (ادب شكيب ارسلان) فانه قد كشف عددا كبيرا من الحقائق الهامة التي يتطلع اليها الباحثون الان بشغف كبير . ففيها احاديث مطولة عن الخلافة الاسلامية والوحدة العربية وموقف الاتراك الكماليين من العرب وموقف السنوسي والملك عبد العزيز آل سعود والامام احمد وعبد العزيز الثعالبي والخديو عباس والشريف حسين ومصطفى كمال اتاتورك .

وقد اشار الى موقفه من عبد الرحمن شهبندر والسيد محب الدين الخطيب وخصومه زكي باشا ومحمد علي الطاهر ومواقف اخرى متعددة.

وكذلك موقفه من ثورة عبد الكريم الخطابي والظهير البربري وعلماء المغرب المتعاونين مع الاستعمار وكفاح شباب المغرب في باريس من اجل الحرية وكيفية ارسال الصحف في جيوب المسافرين الى طنجة ومراسلاته الخطيرة مع المجاهدين في كل مكان وارساله المساعدات الى المجاهدين في البنك .

ومواقفه من حرب التحرير الطرابلسية وموقفه من الملك امان الله خان ومقابلاته للملك فيصل وترشيح الشريف لعرش سورية وتوحيد العراق والشام وترى الامير شكيب يكتب من كل مكان خلال هذه السنوات : برلين ولوزان وجنيف ومرسين وبودابست وجنوه والطائف وبلنسية وبرن وزيورخ . واغلبها من جنيف .

وله رموز للاشخاص بالعبارات والرسوم اليدوية .

ولعل اروع ما تكشف عنه هذه الرسائل ـ التي نرجو ان يكمل

في المكتبات

مع الإمام علي

من خلال «نهج البلاغة»

دراسة مستفيضة عن عبقرية الامام علي كسياسي وحكيم من خلال خطبه ورسائله التي يتضمنها كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تأليف

خليل الهنداوي

منشورات

الثمن ٢٥٠ ق.ل

دار الاداب

الشرباصي نشر باقيها في كتاب خاص او في دراسته المقبلة عن رشيد رضا – هي صورة المجاهد المغترب وهي صورة طالما بحثنا عنها في مذكرات وكتابات اعلامنا الذين هاجروا ولم يكتبوا مذكرات او رسائل وافية وقد كنا نتطلع الى صورة حياة امثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد العزيز شاويش والثعالبي والخضر حسين.

وقد اعطانا شكيب ارسلان في هذه الرسائل صورة وافية واضحة الدلالة لرجل عزيز الجاه اغترب عن وطنه وشقى بهذه الغربة وتحالف الاستعماران الفرنسي والبريطاني على ابعاده عن وطنه الى الابد مع شوق لافح وعاطفة ثره لاولاده وزوجته وامه الغالية .

فاذا التقى باهله في « مرسين » بعد الغيبة الطويلة يصور مشاعره فيقول : ها انذا والحمد لله بعد الغيبة المتطاولة وبعد احوال واهوال وليال مظلمات قد جمعني الله باهلي وشاهدت سيدتي الوالدة التي كنت أذوب شوقا اليها وهي بالعافية ، وقرت عيني برؤية فلذة كبدي (غالب) الذي تركته ابن سنة ونصف تقريبا عيبا بمرجوع الخطاب فاذا به في الثامنة .. والحاصل بالرغم من كل ما نعمت نفسي في اسفاري وفي معيشتي لم اذق طعم الراحة الحقيقية الا منذ جمعه بعد اجتماع شملي مما يدل على انه لا راحة الا راحة القلب .. »

ويصور مدى العسر الذي يلقاه في المعيشة بالغربة وكيف ان «مرسين» تكلف الساكن كل يوم جنيها واحدا من كل وجه ، وانه يعيش بها وحيدا لا يلقى احدا . لو اردت ان اخرج الى السوق بالقفطان ما لاحظ ذلك احد ، وتمضي الجمعتان والثلاث ولا يأتيني زائر ، وبمدة خمسة اشهر ما أدبت مأدبة واحدة » .

ثم اذا سافر الى اوروبا يقول ان السياحة كلفته (٥٠٠ جنيه) وما كان يجب ان اطيل الاقامة سبعة اشهر في احسن الفنادق فلما عاد وجد على العائلة بمرسين ٥٠٠ ليرة تركية دينا « ثم جاءنا بدل ايجار البيت ٦٠٠ ليرة وهي ١٢٠ جنيها باركة علي بمرسين ولا اقدر ان اوفر شيئا لوفائها من دخلي لاننا نريد ان نعيش ونحن ٩ انفس مع الخدم »» ثم اذا انتقل الى جنيف واقام بها لم تتوقف الشكوى فهو يذكر كيف بلغ منه الخناق مبلغه من جهة المعيشة « وفي اخر حساب عملته وجدت علي الف جنيه دينا . واسعار لوزان وسويسرا من الغلاء بحيث تزيد في بعض الاصناف عشر مرات على مثلها في بيروت وحتى بعضها خمسة عشر مرة وفي الفواكه والخضروات عشرين مرة .. »

ومن اجل هذا يقرر ان يرسل اسرته الى بيروت وذلك حتى يخفف اعباء المعيشة « ويتحمل مضض فراقهم » وذلك بعد ان وجد ان عليه في هذه السنة – ١٩٣١ – الف جنيه .

ويقول : وفي هذه السنة ارسلنا الى دمشق ليبيعوا لنا مزرعتنا المفروضة التي من جهات وادي العجم ولكن السنين القادمة سنضطر الى البيع من املاكنا في لبنان .

« وبالاختصار قررت ارسال العائلة الى الوطن فانه سيوفر بذلك ثلثي المصروف بالاقل . ثم يتعلم غالب العربي .. »

ثم يعود في رسائله الى شرح ضائقة حياة الغربة فيقول عام ١٩٣٢ : « كنا ننفق مائة جنيه في الشهر فاصبحنا ننفق ٤٠ جنيها .. بقينا نأكل برفاهة ولكننا تركنا الزوائد والفضول واقتصرنا في الملبوس على ما لدينا ، وتركنا لبس الجديد ، واطرحنا كل ما ليس بضروري ، وفي مدة شهر ونصف لم يأكل عندنا الا اربعة او خمسة ضيوف بعد ان كانت الناس على سفرتنا بصورة دائمة تقريبا .

وكنا ننفق على الاكل والشرب ٦٠٠ فرنك سويسري في الشهر فلما اضطررنا للتوفير صرنا لا ننفق عليهما اكثر من ٢٥٠ فرنكا ، لقد كنت ألوم البخلاء واقول قبحهم الله ، ماذا عسى ان يكون مصروف الضيافة . وكنت اجادل في ذلك ولا اقتنع بعكسه الى ان حصلت الازمة واضطررت بفقد الدراهم من يدي ان اقتصد برغم انفي » .

ويقول ان بعض دائنيه « عندما علموا انه انتقل الى جنيف صاروا يكتبون لنا مكاتيب مزعجة وينذروننا بافاقة الدعاوى. ووصل بنا الامر الى ان عرضنا رهن بعض الحلى عند احد الجوهرية الذين لا نعرفهم » .

ومع هذا الفقر والحاجة كان صابرا محتسبا يكتب ويؤلف ويرسل كتبه الى المنار والفتح والحلبي لنشرها نظير جنيهات قليلة ويحصل على النسخ فيرسلها الى الحبشة والكونغو وشرق افريقيا وجاوه والى كل اصدقائه في العالم العربي والاسلامي لتوزيعها وارسال ثمنها . ويعتذر للشيخ رشيد رضا الذي يطالبه بان له ٦٢ مقالة لدى جريدة السياسة لم يدفعوا له عنها شيئا ومقالاته عند حسن حافظ عوض في كوكب الشرق وتأخر صاحب الجهاد عن دفع مقالاته .

ويدعو الى الاجتهاد في تصريف الكتب . ويحصل من كتاب «حاضر العالم الاسلامي » على مائة نسخة نظير كل مجهوده الضخم فاذا باعها لم يجد من يشتريها باكثر من خمسين جنيها ويوالي تأليف الكتب وطبعها حتى يحصل على ما يسدد به بعض الديون .

واحيانا يكتب الرسالة في يومين ونصف كما فعل في رسالة «لماذا تأخر المسلمون » يقول كتبتها بعجلة زائدة كرجل يريد الخلاص من عمل لينفرغ لاعمال اخرى .

ويشقيه خصومه بالائتمار به وينشرون ضده رسائل بالزنكوغراف منسوبة اليه فيكتب خمسمائة صفحة في خمسة عشر يوما وتكل يده من الكتابة ويراسل اصدقاءه واعوانه في مختلف انحاء العالم العربي والاسلامي فينفق اكثر من خمسين جنيها في العام على المراسلات .

وهو مشوق الى مصر يريد ان يقيم فيها ، ويسأل رشيد رضا ان يتصل عبد الحميد سعيد بالملك فؤاد من اجل ان تسمح له بها.

فاذا سافر الى الحجاز منعوه من النزول بمصر ثم يسمح له بعد الجهد بالنزول في السويس لينقل من مركب الى مركب.

ومجلته الفرنسية تكلفه خسارة قدرها خمسمائة جنيه في العام الواحد ، ومع هذا الشقاء كله تجده صابرا قويا صامدا اذا ما نزلت بالعرب نازلة هنا او هناك شرع قلمه ومضى يكتب للملوك والامراء والعظماء ويجمع المال ويطبع المنشورات ويوالي الصحف ويحرك الرأي العام في قوة ، ومع هذا الفقر والمشقة كان يقابل اينما حل مقابلة الملوك . فيقول في زيارته لشرقي اوربا (بودابست – فيينا – زوريخ): « ررت بضعا وعشرين مدينة وقرية زينت المنازل بالاعلام ، وكان العلماء والاشراف يخرجون الى مسافات بعيدة للملاقاة، واقواس النصر والموسيقا – وكلما مررنا نسمع هتاف الجماهير (جيفو) أي فليحي، اما الذي لقيته من الحفاوة في بوسنه وهرسك ففوق الوصف بل فوق التخيل ».

« كلفتني سياحتي الى الاندلس وبعض المغرب مائتي جنيه، واستمرت ثلاثة اشهر وقد اقترضت الدراهم من الدكتور بيضا. وكان علي من قبل ستمائة جنيه دينا فصار علي الان ٨٠٠ جنيه . ولكني ما سررت في حياتي بسياحة سروري بهذه السياحة برغم التذكارات المحزنة المؤلمة التي كانت تشوب سروري وكان انفاق المائتي جنيه علي مثلي مثل العسل ..

ويقول : « سيكون كتابي ان شاء الله كبيرا على الاندلس ، وجاء فيه ما لا يعرفه العرب حتى الان » .

ثم يعود فيقول انه يزمع العودة الى الاندلس « فاتتني اشياء لا بد ان اراها في نفس غرناطه ومدن اخرى وفاتني ان ارى المريه ووادي آش وبلش مالقة واماكن كثيرة . ثم اني لم اشاهد الغرب ان بطليوس وبلاد البرتغال .. » .

وهكذا لا يتوقف شكيب ارسلان في غربته عن العمل ولا عن الرسائل: « الحال ان الاشغال لا تمهلني ان اتنفس . ولولا ان الله يمن بالقوة ما كان يمكنني ان اقوم بذلك وحدي ولولا ضعف العينين ، لا اشكو هذه المدة من شيء ولكن وفرة الكتابة تضطرني الى غسل عيوني بالبابونج الحار ثلاث مرات في النهار »

وبعد فهذه صورة حياة المغترب كما عاشها شكيب ارسلان ورسمها بقلمه في رسائله الى رشيد رضا .

ولا شك انه كان لهذه الرسائل التي نشرها الشرباصي اهمية

تاريخية بعيدة المدى وسيكون للرسائل الباقيـــة « وهي ٨٥ رسالة » واغلبها سياسي أثر بعيد.

والواقع ان العمل الادبي الذي تحقق بنشر دراسة مستفيضة عـن شكيب ارسلان في ١٥٠٠ صفحة وثلاثة مؤلفات عمل كبير نافع وجـدير بالتقدير مع المطالبة بالاتمام السريع ، والدعاء للشرباصي بالتوفيق.

القاهرة — أنور الجندي

من الادب الافـريقي

تأليف علي شلش

منشورات دار المعارف ـ القاهرة

* * *

تلاقي الدراسات الخاصة بافريقيا الان اهتماما كبيرا من العالم كله، ويرجع هذا الاهتمام الى وقوف القارة الافريقية بمعزل عن الحضـــارة العالمية وان كان هذا لا ينفي ظهور حضارات كثيرة فيها ، ولكنها كـانت فاقدة الصلة تقريبا بالحضارات الاخرى التي تشترك في منبتها فيجذور كثيرة والتي يقوم بينها كثير من الروابط الفكرية مثل الحضـــارات « الفرعونية » و « البابلية » و « الاغريقية » و « الرومانية ».

والادب كأبن شرعي للحضارة يعطينا الكثير من خصائصها ومميزاتها .. ولذلك تلقى الدراسات الجادة للاداب الافريقية وخاصة في مصـــر ترحيبا كبيرا لان مصر كجزء من القارة الافريقية نشأت فيه حضـــارات قديمة أثرت في مجرى الانسانية في تاريخها القديم ، وكدولة نامية في عصرنا الحديث لا تستطيع ان تقف بمعزل عن هذه الحضارة وعن هـذا التفكير الجديد الذي يجتاح افريقيا اليوم .

ومن الكتب التي ظهرت اخيرا في هذا الموضوع الكتاب الـــذي اصدرته دار المعارف بالقاهرة بعنوان « من الادب الافريقي » للاستـاذ علي شلش . والكتاب محاولة جيدة لتقديم الادب الافريقي وان كان بـه اخطاء لا يصح ان يقع فيها دارس للادب الافريقي على الاطلاق .. ولننتقل الان الى الكتاب نفسه ولننافش الاراء والمعلومات التي اوردها المـــؤلف في كتابه عن الادب الافريقي.

يبدأ المؤلف كتابه بتمهيد عن الدور الطليعي لثورة عام ١٩٥٢ بالنسبة للقارة الافريقية ثم يشير الى الوسائل الاستعمارية الفرنسية والبلجيكية لتذويب الشعوب والقضاء على الروح القومية والتفرقة العنصرية فـي اتحاد جنوب افريقيا وسياسة المشاركة في الحكم مع الابقاء على السيطرة الاستعمارية كما تفعل انجلترا في مستعمراتها ، ثم يشير الكاتب الـى اهمية ثورة ٢٣ يوليو « تموز » في التأثير على علاقة شمال القـــارة بجنوبها واعتبارها كلا غير قابل للتقسيم ولتطلع القارة بعد ذلك للقاهرة باعتبارها رائدة في الكفاح الوطني في افريقيا .

ويشير الكاتب بعد ذلك الى قضية هامة تشغل حيزا في اذهـــان المثقفين في الغرب وهي قضية الادب الافريقي الذي اخذت براعمه فـي التفتح والظهور بعد الحرب بصفة اساسية . فلقد شهد هذا الجزء من العالم نموا ملحوظا في الاداب والفنون . ويعيب الكاتب على النقـــاد الاوربيين استعمالهم مصطلحا خاصا بالنسبة للادب الافريقي في الاقطار الواقعة جنوب الصحراء الكبرى وهو ادب الكتاب السود Negro Writers ويعتبر ان هذه مغالطة كبرى لان الادب الافريقي ليـــس ما يكتب فـي الجنوب فقط وانما في الشمال ايضا مثل ليبيا والجمهورية العربيـــة المتحدة والسودان والجزائر . والحقيقة ان التعبير المستخدم ليس بـه مغالطة على الاطلاق فتعبير Negro Writers يطلق على ادبه سمات معينة وخصائص ينفرد بها وحده ، وذلك راجع الى ان اللـــون الاسود يحمل معاني كثيرة بالنسبة للافريقي وتنطبع هذه المعاني في ادبه وتفرقه عن جميع الاداب التي نستطيع ان نجدها في أي مكان . ويترك اللون الاسود في الادب الافريقي اثارا بعيدة المدى تتغلب على عـوامل البيئة نفسها . والدليل على ذلك اننا لو نظرنا لانتاج الكتاب الســود الذين يعتبرون انفسهم ابناء شرعيين للقارة الافريقية رغم بعثرتهم فـي جميع انحاء العالم لوجدنا ان ادبهم يحمل في طياته خصائص واحـدة تميز كتاباتهم عن بقية الكتابات الاخرى . وما زلنا نلمح في اشعـــار الكتاب الزنوج في اوربا وامريكا حنينا غريبا الى وطنهم الاصـــلي افريقيا ، يشدهم الى ذلك الوطن لونهم الاسود ونلمح في ادابهم خصائص مميزة يشتركون فيها مختلفين عن الاداب الاخرى في هذه الخصـائص الجوهرية بالنسبة لادبهم . وعلى هذا الاساس نجد ان هذا التعبيـــر يدل على نوع معين من الادب له سماته المميزة التي تبعد به الى حـد كبير عن المميزات الاخرى لشمال القارة ، هذا مع وضعنا في الاعتبـار انه حتى الخصائص البيئية في الشمال تختلف اختلافا شاسعا عـــن الخصائص البيئية في الجنوب . وعلى ذلك يصبح هذا التقسيم تقسيما طبيعيا بالنسبة لدارسي الادب لا يجعلنا نثور مدعين انه كتب باغراض استعمارية خبيثة .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن الكتابات الاجنبية عـــن القارة ويقسمها الى قسمين ... قسم يتخذ من القارة مسرحا له مثل « دكتور جونسون » و « س. فوستر » و « سارتر » و « هيمنجواي » و « البير كامو » و « الفونس دوديه » و « بيير لوتي » وقسم اخر سجل القصص والاغاني الشعبية خلال النصف الاول من هذا القرن. ولا ينسى الكاتب ان يشير الى ان هناك الكثير من الاخطاء والمغالطات في نقل هذه القصص والاغاني .

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى الفصل الثاني بعنوان « مـــأساة وأدب » فيبدأ هذا الفصل قائلا :

في الاسواق :

الحضارة العربية الجديدة وحتمية الثورة

تأليف

أنور قصيباتي

* ان حضارة جديدة تلوح في الآفاق البعيدة ، وان العرب هم الذين سيبدعـون هذه الحضارة .

* ان الثورة هي الطريق الوحيد لاقامة هذه الحضارة، ولن تتحقق الا بالتدخل الارادي

الثمن ٢٠٠ ق.ل ـ ٢٥٠ ق.س — منشورات دار الاداب

« لو أننا حاولنا ان نرد هذه الاداب الى الظروف الاجتماعية التي احاطت بها وولدتها فانه ينبغي علينا بداءة ـ ان نطرح من اذهاننا فكرة الفن او الادب الخالص او كما يسمى في مجال النقد الادبي بمبدأ «الفن للفن» » . ويعلل ذلك بأن افريقيا تعاني من مأساة فظيعة وهي مأساة الاستعمار . ثم يحدثنا المؤلف بعد ذلك عن تأثير البيئة على الادب الافريقي فنجد ان الشخصية الرئيسية في البيئة بعد الانسان هي الغابة وهذه الغابة تمده بثروة من الاصوات والالوان على حد سواء وتعطيه الاحساس بالسحر والغموض فلجأ الى تقديسها كرمز للامومة والخصب والقوة وكمصدر للالهام والارشاد ايضا فهذه الغابة بألوانها واصواتها التي تتحد في تشكيلات منتظمة ومتناسقة جعلته يقف منها موقف المتأمل المتأهب للتقليد والمحاكاة ، ولذلك احترم الغابة ومجدها وامتزج بها ، لذلك نجد ان الايقاع والنغم يمثلان جانبا حيويا من جوانب الحياة في القارة الافريقية ومن المرجح ان الطبلة ابتكار افريقي خالص. وكذلك ايضا نجد ان اهتمام الافريقي باللون اهتمام فطري مرده البيئة ذاتها ويظهر ذلك واضحا في فن النحت الافريقي ، كما نجد ايضا ان الغابة تلعب دورا كبيرا بالنسبة للقصاص هناك وهو يحملها بحيواناتها وطيورها تعاليمه واقواله .

والاثر الثاني على الادب الافريقي بعد البيئة مباشرة هو اللغة اذ ان عدد اللغات في افريقيا يربو على ٧٠٠ لغة ، وهذه اللغات غير مكتوبة غالبا وانما منطوقة فقط ويرجع الكاتب هذا التعدد في اللغات الى طبيعة النظام القبلي السائد في الجنوب . ولقد اشتق علماء اللغة المحدثون من هذه اللغات نظرية Bow - Wow في اصل اللغات ، وتقرر هذه النظرية ان اول لغة عرفها الانسان نشأت عن تقليده لاصوات الحيوان والطير والنبات ، وان كانت في رأي البعض محاولة لسجن اللغة في حظيرة للحيوان (الدكتور ابراهيم انيس في دلالة الالفاظ والدكتور علي عبد الواحد في علم اللغة) ومن الملاحظ ان اللغات الافريقية متقاربة الى درجة كبيرة . ويتحدث الكاتب عن مكانة الفنان والاديب فيشير الى عظمة مكانتهما في نفوس الافريقيين كقوة تحررية كما انهم يحترمون الفنانين ويعاملونهم معاملة خاصة . ويشير الكاتب الى محاولات الاستعمار للاقلال من شأن التعليم للدور الكبير الذي تلعبه الثقافة ضد الاستعمار ويشير ايضا الى المحاولات التي تبذلها الارساليات هناك للاقلال من شأن اللغات الافريقية واعلاء شأن اللغات الاوربية ودعوتهم الى ترك ارضهم باسم المسيحية . ثم يتحدث المؤلف عن تعدد اللغات كعامل معوق لتطور الادب وانتشاره وعن تأثير اللغات الاوربية الجاهزة لديهم والصالحة للاستعمال ويشير الى ان الحكومات الافريقية تحاول الان الاخذ بلغة وطنية واحدة .

ويأتي بعد ذلك دور التراث الشعبي فنجد انه يتميز بصفتين اساسيتين وهما العراقة والغزارة ، فضلا عما تتمتعان به من بساطة. والتراث الشعبي منطوق فقط غالبا لان اللغات في تلك البيئة غير مكتوبة كما اشرنا من قبل . وينقسم ذلك التراث الى الحكاية التي هي بمثابة المدرسة للشعب كما انها رد فعل طبيعي لدى الانسان ازاء الظواهر الطبيعية ، وعن الامثال يحدثنا المؤلف عن ارتباطها الشديد بالبيئة وعن انها جزء لا يتجزأ من لغة الحديث الدارج ، ثم يتحدث عن الاغنية هناك وارتباطها بالسحر لاسقاط المطر ومواجهة العواصف . وينتقل الكاتب بالحديث بعد ذلك الى المؤتمرات وقراراتها الخاصة بالقارة وارتباط الثقافة بالكفاح الوطني الذي ساد معظم اقطار القارة فيما بين الحربين وفي اعقاب الحرب الثانية بصفة خاصة حتى اصبح الادب سلاحا قويا من اسلحة الكفاح الوطني في القارة الافريقية .

كان هذا عرضا سريعا للدراسة التي قدم بها الكاتب نماذج الادب الافريقي التي ضمنها كتابه والتي احتلت ضعف الصفحات التي احتلتها النماذج كلها رغم ان الكتاب من عنوانه « من الادب الافريقي » يوحي بتقديم نماذج ومقتطفات من هذا الادب في معظم صفحات الكتاب مع مقدمة بسيطة عنه وترك هذه النماذج تتحدث عن نفسها مع الاشارات اللازمة التي يراها الكاتب . وقد كان من الاجدر به ان يتخذ موقفا واضحا في وضع هذا الكتاب ويحدد اذا كانت دراسة النماذج هي الغرض الرئيسي او تقديم النماذج فقط . ولو تجاوزنا عن هذا النقص والتمسنا العذر للكاتب وافترضنا ان حجم الكتاب وظروف الطباعة لم تسمح باكثر من هذه النماذج التي قدمها فانه يحق لنا ان نتساءل هل جاءت هذه النماذج التي قدمها مطابقة لشيء مما قاله من دراسته تلك ، وهل جاءت عن اختيار دقيق واضح من وسط التراث الافريقي ؟. فالحقيقة ان اغلب النماذج التي ساقها الكاتب من النماذج العادية والتي كان بامكانه ان يجد نماذج افضل منها بكثير : فعندما ينقل لنا الكاتب بعض الاغاني الشعبية من التراث الافريقي نجده يقدم لنا اغنية « حزن كوديو » من ساحل العاج وتصف حزن رجل فقد زوجته ثم يقدم اغنية من « موزمبيق » بعنوان « ضفيئة » وتقول هذه الاغنية :

« ايها الجمال
اجعل كل ما ابتغيه منك حراما علي
حرم على كيانك ما شاء لك هواك
ارفضه »

ويعلل الكاتب هذا الرفض للجمال بالاثام التي اقترفها رعاياه من البيض . والحقيقة ان هذه الاغنية تبدو غريبة في مجتمع يعيش في الغابة يعبد الالوان ودقات الطبول ويهيم بالجمال في جميع صوره الطبيعية . ولا تشتمل هذه الاغنية على الاحساس المأساوي الذي يحاول الكاتب ان يضعه عليها . وبعد ذلك يقدم لنا الكاتب اغنية شعبية من افريقيا الاستوائية بعنوان « فرحة المخدوع » عن رجل اكتشف ان زوجته تخونه مع صديقه فيستل سكينة ليقتله ولكن صديقه يعطيه خمسة جنيهات فيتركه وينصرف بزوجته :

« نعم ، كان بوسعي ان اسفك دمه
ما لم يكن في الوقت المناسب
ما لم يكن قد استيقظ في الوقت المناسب
ليمنحني خمسة جنيهات ،
اخذتها ،
ومضيت ،
بزوجتي ...
لان الماء يزيل الرائحة ،
رائحة الحب ...
ولان النقود لا رائحة لها ! »

وبعد ان يقدم لنا الكاتب هذه الصورة المشوهة يحاول ان يلتمس العذر بان الاستعمار هو السبب في ذلك ! والسؤال الذي يبدر هنا : الم يجد الكاتب سوى هذه النماذج من الاغاني الشعبية ليقدمها في كتابه عن الادب الافريقي ؟!... وهل اختفت الافكار التحررية التي تجتاح القارة الان من اغانيهم الشعبية ؟!!... فالحقيقة ان هذه الافكار وجدت مكانها في الادب الشعبي عندهم يتداولونها دائما ، ولنأخذ مثلا لذلك من البحث الذي كتبه « تنيسون ماكيوين » من جنوب افريقيا عن الاغنيات في الادب الافريقي ، فمثلا نجد رئيس العمال في اغاني الطرق يغني قائلا : « الطيور تغني فوقنا فماذا نفعل نحن ؟ » فيرد العمال صائحين : « علينا بالكفاح .... ليو . و... وو ... و ... » ..... او الاغنية الشعبية من جنوب افريقيا ايضا التي تقول : « لعنة الله على الرجل الابيض الذي يسمينا . حم ... يسمينا . حم ... » او الاغنية الشعبية التي تغنيها النساء في « آكان » لتمجيد قواد الحروب بطريقة حماسية قائلات :

« افسحوا الطريق ... افسحوا الطريق للقائد المنتصر ...
انه قادم ... انه قادم ... من بعيد ....
فافرشوا الارض ... افرشوا الارض بالبسط الخضر ،
لان قائدنا ثمل بخمرة النصر » .

وغير هذا من عشرات النماذج التي يحفل بها التراث الشعبي في القارة الافريقية والتي تدل على روح القارة الثورية ومعدنها الحقيقي . وكان من المفروض ان يستشهد الكاتب بنماذج منها بدلا من الاستشهاد

بتلك النماذج الساذجة التي اوردها في كتابه . وعندما ننتقل الى الحكايات الشعبية نجد ان الكاتب ينقل لنا ثلاث حكايات .... وهذه الحكايات هي « كلام » وهي حكاية من لغة « الاشانتي » و « تاكيس » من لغة « الهوسا » و « طائر الاسنياندينك » من الجنوب ... والحكايات الثلاث تشتمل على ملامح بيئية واضحة وينعكس عليها تأثير الغابة بنباتاتها وحيواناتها وطبيعتها وان اختفى منها التفكير الناضج الذي استطعنا ان نلمحه في بعض الاساطير الافريقية الاخرى .

ولعل النماذج الشعرية التي اختارها الكاتب كانت اكثر نماذج الكتاب توفيقا من حيث الاختيار . فلقد قدم الكاتب قصيدتين ... « افريقيا » « لدافيد ديوب » وقصيدة « عسى ان ينتصر شعبنا » لزعيم الكونغو الشهيد « باتريس لومومبا » ...

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى القصص فيقدم قصة « لاموس توتولا» وهو من الكتاب المهتمين بجمع التراث الافريقي واعادة صياغته من جديد كما يقدم الكاتب قصة اخرى بعنوان « القربان » « لشنوا أشيب » وهي قصة اكثر نضجا من الحكاية الشعبية التي اعاد « اموس توتولا » صياغتها .

ولقد تجاهل الكاتب مشكلة اساسية بالنسبة للقارة الافريقية تجاهلا تاما رغم تأثيرها الشديد على التفكير الادبي في القارة وهي مشكلة التفرقة العنصرية ، ولم يشر الى مثل واحد في هذا الموضوع ، مع ان الادب الافريقي غني بالقصص والاشعار التي تهاجم هذه التفرقة وتدعو الى الحرية والمساواة مع البيض ، ونستطيع ان نلمح هذه الظاهرة بوضوح في الكثير من قصصهم القصيرة التي تكتب حاليا مثل القصة التي كتبها « ريتشارد رايت » من جنوب افريقيا بعنوان «المقعد الاوربي » والتي تتحدث عن رجل اسود يرفض التخلي عن مقعد مخصص للبيض في قطار فنجد في هذه القصة نموذجا حيا للتفكير التحرري الذي بدأ يجتاح القارة ولم نجد اي اثر للتفكير التحرري هذا في القصص والاشعار التي ضمنها المؤلف كتابه مع انه كان من المفروض ان تحظى هذه القضية الحيوية باهتمام كبير في كتابه ذلك ....

ولعل تجاهل الكاتب لمشكلة التفرقة العنصرية لم تتح له الفهم المأساوي بالنسبة لوضع اللغة الاوربية عند الكاتب الزنجي اثناء حديثه عن اللغات ... فالكاتب الزنجي يتسلم لغة اجنبية بدستورها الذي يجعل من اولوية الابيض على الاسود شيئا مقدسا . فعندما تتحدث هذه اللغة عن البراءة تقول ابيض كالسحاب واذا تحدث الكاتب الزنجي عن الشر فسيتحدث عنه بامكانيات اللغة الاوربية نفسها فالشر اسود دائما في هذه اللغة والجريمة ايضا سوداء وتجعل هذه اللغة من المستحيل على الكاتب الاسود ان يقول مثلا « سواد البراءة » او « ظامات الفضيلة» كما يقول « جان بول سارتر » في مقدمته عن الشعر الزنجي بعنوان « اورفيوس الزنجي » ولذلك لا عجب في ان نسمع هذا التمجيد للاسود باللغة الاوربية عندما يقول الشاعر الاسود مثلا :

« ثدياك النافذان ، اللامعان ،
وابتسامة العينين البيضاء هذه
في ظل الوجه
توقظ في نفسي هذا المساء
ايقاعات صماء ،
تنتشي بها هنالك في بلاد غينيا
اخواتنا
السوداوات ، العاريات
وتنشر في نفسي
هذا المساء
اصائل زنجية ثقيلة من انفعال شهوى
لان
روح البلد الزنجية التي ينام فيها القدماء
تحيا وتتكلم
هذا المساء
في القوة القلقة الجياشة بطول ردفيك الرجراجين »

وفي هذه المحاولة يجعل الشاعر من السواد لونا جديدا رائعا مشرقا يستريح اليه ويجد فيه المتعة والجمال .... فمشكلة اللون بالنسبة للافريقي من المشاكل التي عذبته واثارت تفكيره وفجرت فيه مشاعر كثيرة اثرت تأثيرا كبيرا على الادب في القارة الافريقية . ومن الغريب ان يتجاهلها الكاتب هذا التجاهل الواضح في النماذج التي لم يجشم نفسه عناء جمعها فجاءت مقدمته في واد والنماذج التي استشهد بها في واد اخر ، بعيدة تماما عن روح هذه القارة التي استطاعت ان تضع نفسها تحت الشمس وتفتح الابواب للمشاركة في الحضارة الانسانية ...

وبعد ... فحسب هؤلاء الادباء في هذه القارة انهم وضعوا جنسهم كله في اطاره الانساني الخليق به ورفعوا رؤوسهم من جديد بثقة وعزة ..... ولنستمع الى المفكر الفرنسي الكبير « جان بول سارتر » وهو يقول :

« ما الذي كنتم تتوقعونه اذن حينما تنزعون الكلمات التي تسد هذه الافواه السوداء ؟ ان تتغنى بمديحكم ؟ وهل تظنون ان هذه الرؤوس التي كان يحنيها آباؤنا بالقوة ، هل تظنون انكم ستقرأون علائم التعبد في عيونها حينما تعود الى الارتفاع ؟. ها هم اولاء رجال سود واقفون ينظرون الينا واتمنى لكم ان تستشعروا نظرة الاخرين وهي تقبض عليكم. ذلك ان الرجل الابيض قد تمتع خلال ثلاثة الاف عام بامتياز ان ينظر للاخرين دون ان ينظروا اليه . كان الرجل الابيض نظرة خالصة ، وكان ضوء عينيه يستمد كل شيء من ظلال وطن البيض ، بل كان بياض بشرته نظرة هو ايضا ، كان شيئا من الضوء المركز . وكان الرجل الابيض ابيض لانه وحده الانسان ابيض كالنهار ، ابيض كالحقيقة ، ابيض كالفضيلة ، وكان يضيء الخلق كأنه الشعلة ، وكان يكشف عن ماهية الكائنات البيضاء الخفية . واليوم ينظر الينا هؤلاء البشر فترتد نظرتنا الى عيوننا ، فها هي ذي شعل سوداء تضيء العالم بدورها ولم تعد رؤوسنا البيضاء سوى قناديل تؤججها الريح . »

هذه الشعل السوداء اضاءت طريق القارة الى ادب يعكس ما تشعر به القارة الافريقية الان وهي تأخذ مكانها تحت الشمس بعزة وكرامة وحرية .

القاهرة — **محمد كامل القليوبي**

صدر حديثا

الوجودية وحكمة الشعوب

تأليف سيمون دو بوفوار

ترجمة جورج طرابيشي

دراسات عميقة عن الوجودية وعلاقاتها بالمجتمع والشعب وأثرها في الحياة عموما

دار الاداب — الثمن ١٧٥ قرشا لبنانيا